الوجودية في القصة القصيرة

بقلم : أحمد عصام الدين

ان الحقيقة التى لا تقبل الجدل هى أن القصة القصيرة فى هذا العصر كما كانت فيما مضى وكما ستكون فى مستقبل الأيام ، أداة تعبير عن حقيقة أو نزعة أو مذهب مما يختلف على الانسانية فى عمرها الممدود ـ حقائق تكشف عن البصيرة ونزعات تعتور النفس ومذاهب تتبلور فى الفكر ، وكأنما فطن صاحب الحقيقة أو النزعة أو المذهب ومن ينسج على نوله الى مدى ما للقصة من أثر فى النفس ، فأنشأ يصطنعها وسيلة الى غرضه ·

وواحد من المذاهب الانسانية التى تسربت الى عقيدة أهل الأرض على مدى واسع ، مذهب الوجودية ، ذلك المذهب الذى يقول بالذاتية وحدها وأنها دون الذات والعقل هى المعول الوحيد فى عالم تبدو فيه الأشياء وقد خلت من كل معنى وبدا العقل سخفا ، وترتب على هذا أن يتعين على الانسان وقد جرد مما كان له من معتقدات وتقاليد وعادات أن يتخذ هو قرارات ، وأن يجد حقائقه التى دعاها كيركيجارد « الحقائق الدامية » ، تلك التى تكشف عن رحلة العذاب التى تقوم بها الروح خلال ليل اللاشىء البهيم ·

والوجودية بما اختلف من وجودها تنعكس صورتها فى القصة القصيرة ، فكل قصة قصيرة وضعها قصاص وجودى ترمز لجانب من المذهب وتعالج القضية على نحو يطيب للنفس أن تخلد فترة من الزمن تصغى الى الحديث عنه فهو يأتيها عن طريق القصة ، ذلك الشكل الأدبى الوحيد الذى يروق لها وتطمئن الى صحبته ·

ونعرض هنا نماذج من القصة الوجودية تعرض جوانب من المذهب الوجودى ، اذا فرغ القارىء منها ، يكون قد حصل الكثير ، لا أقول من الفائدة العلمية الخطيرة ، ولا المتعة الأدبية الرائعة ، ولكن الى طرف من هذه وطرف من تلك ، عن مناخ العصر الثقافى وما يعيش فى جوه من أفكار ومذاهب تلبس من حلل الأدب ما يروق للنظر وتصطنع من أساليب حديثه ما يطيب للسمع ·

فهذا سارتر ، جين بول سارتر ، الفيلسوف الأديب ، وعلم الوجودية الأشهر فى عصرنا ، يلتمس فى القصة القصيرة طريقا الى عرض رأيه الوجودى ، فهو يرى أن الانسان لا بد أن يحظى بأكبر قدر ممكن من الحرية ، حتى يمكن له أن يتحمل أكبر قدر من المسئولية فى عالم هو وحده الأول فيه والأخير · نراه فى محاولته منح الانسان هذه الحرية الكبيرة يحدد من جديد مفهوم التحليل النفسى ، فيرى أن الانسان بل وجوده انما يقوم على الحرية التى يكسبها عندما يختار أن يصنع من نفسه ماهو . وعلى أساس من هذه النظرة ، نراه يرفض فكرة اللاشعور أو العقل اللاواعى التى تجعل من الانسان مخلوقا سلبيا لا حول له ولا قوة · اذ أنه يعتبر كل شىء يحدث له مما هو بديهى فى عين عقله ، انما يشكل عنصرا من الذات الواعية ومن ثم فهو يخضع للسيطرة عليه · بل ان رد فعل الانسان السلبى للظواهر الخارجية ، يكشف

عن حريته ، فان القدرة على قول لا ، ان هى الا سلبية مبدعة يعبر فيها الفرد عن فرديته .

ومن ثم ففى قصة (الغرفة ترى بيرليس مجرد رجل يقيده جنونه الى غرفته ، ولكنه فرد ينكر فى حيوية ظاهرة أن ما من شىء فى الخارج له وجود ما ، فى أية صورة من الصور ؛ وهو فى فعل هذا انما يثير الشك فى سلامة عقل أولئك الذين يدعون أنه مجنون فارقه عقله ، وهو يجعل منهم ما يحاولون أن يجعلوا منه ، فاذا النقاش لا يلبث أن يدور حول ـ أى الطرفين ينعم بحرية أكبر ؟ ان المرء لا يزال يستطيع القول بوجوده عن طريق خلق جوهره ذاته .

وفى احلال الانسان محل الله ، يحرص سارتر على بيان أى صنف من الانسان ضرورى لهذه الغاية ـ انه عند سارتر الانسان صاحب العقيدة الطيبة ، انسان يتأمل ويتدبر ، انسان واع يحس ذاته ويدرك شخصيته على حقيقتها هذا الانسان انما هو انسان حر ، فى حين أن الانسان ، ذا العقيدة الفاسدة يؤلف الضد التام ، فنراه لا يعى تماما ، ثم هو رجل غش وخداع ، فهو يخفق فى تأمل دوره فى العالم الذى هو فيه . انه يعيش متراخيا فى أعماق خداع النفس الناقصة ، فهو قد يقبل ماينبغى له أن يرفضه ، وهو قد يرفض ما ينبغى له أن يقبله. وسارتر فى قصصه القصيرة خاصة يحاول دائبا تعريف الانسان صاحب الطوية الحسنة الطوية الفاسدة ، والكشف عن كيفية سلوك هذا وذاك فى مواقف تتطلب استجابة صفاته الخاصة وحدها .

وفى ضوء هذا الكلام ، تمكننا قراءة قصة (الغرفة) باعتبارها سردا تاريخيا يروى حياة حالة من حالات خداع النفس ، أو عرض لحال صاحب الطوية الفاسدة : ففى الواقع ، انما يبدو أن سارتر يغرق فى فكرة فساد الطوية هذه ، حتى ان أحد نقاده يرى فى عمله هذا مجهودا طويلا يهدف الى اكتشاف قناعات الطوية الخبيثة دون رقة الاحجام عن ذكر مالا لزوم له ، ففى هذه القصة زوجة تعيش مع زوجها المجنون فى الطابق السادس من بناء قديم ، ترفض المرأة وضعه فى مصحة عقلية ، ساعية عن طريق حبها ومشاطراتها أن تكون مثله فتذوق طعم الجنون الذى هو علته. وهنا نحصل على مثل واضح كل الوضوح من أمثلة خبث الطوية وفسادها ، فاذا كانت لا بد تخفق جهودها ، اذا بها تكره على الوجود فى ظلال منطقة الوسط التى لا هى جنون ولا هى عقل سليم . ويصور والدا الزوجة البرجوازية شكلا آخر أكثر وضوحا من أشكال الطوية الخبيثة ؛ وكلا المثلين متطرف شديد التطرف ؛ أكثر جوهرهما طرازى ، فكلاهما امتداد للحقيقة الطبيعية .

وقصة سارتر هذه الى قصة بروست « مشاعر بنوة قاتل أبيه » وقصة بيراندللو الموسومة « شنشى »تتسم جميعها بأنها تكشف منشئون النفس بما اختفى وراء مظهر سمته الوقار والاتزان . فالأدب الوجودى ، بحكم تعريفه ، يشتغل بهذا الجانب من الوجود الانسانى ، ولعله أكثر من غيره ، وخاصة فى قالب القصة القصيرة قد اكتشف هذه الأعماق غير المعروفة . وتطالعنا هنا حقيقة تدعو الى ذكرها ، تلك أن أهل التحليل من أرباب المذهب الوجودى قد خبروا أوجه النفس الانسانية طويلا قبل أن يقنن فرويد أفكاره عن اللاشعور ، كما عاد من جاء بعده منهم فاصطنعوا طرائقه فى كشف ما غاص فى مستنقعات السلوك الانسانى ، ولفه الظلام يستره عن

الأعين . فقصة بروست التى ذكرنا ، تكشف عن العالم الذى فى غير موضعه ، حيث كان يعيش فلارنبرغ قاتل الأب المذكور ؛ وتومىء الى أن كثيرا ما كان السعى من أجل الحقيقة فى شأن شىء بعينه يفضى الى القتل والانتحار ، حتى ان المرء ليختلط عليه الأمر فلا يدرى أين الحقيقة !

وبالمثل فى قصة « شنشى » من تأليف بيراندللو ، نرى أن قتل الصبى المفاجىء ليس أمرا شاذا ، فهو يؤلف بعض كيان السأم الذى عليه عالم شنشى ، وهو ينفجر على نحو ما لا بد أن تنفجر صورة من صور العنف حين يتعذر بل يستحيل متنفس آخر عليها . فهو وقد ترك بمفرده مع أن العاهرة ، دون ارشاد ظاهر من أى نوع ، شاعرا بالملل المميت الذى يسم وجوده ، وبغير وعى ما لذاته أو لعالمه الذى يعيش فيه ، يجد من الطبيعى أن يقتل ، حتى ولو كان القتل صدفة أو عرضا . وفى عالم كهذا ، يحتمل أن يحدث أى شىء ، فبعد ارتكاب جريمة القتل ، يعود « شنشى » الى عالمه الكئيب وقد استحال الصبى لقتيل فى الغاب ، ذكرى ، لا تلبث أن تغرب عن باله ، وتضيع فى طى ما يجد مع ضحيته التالية .

وفى ريب من هذا القصص ، قصة فيردى ليل آدم الموسومة « الرغبة فى أن يكون رجلا » وفيها يسأل فيرفيما يلقى من أسئلة ، كيف يمكن لممثل أن يميز نفسه ذاته من أدواره الكثيرة التى يقوم بها أيها الممثل ، وأيها الرجل الحقيقى ؟ أى شخصية يمكن للمرء أن يحققها ، حين يتعين عليه أن يتخذ شخصيات عدة حتى يكون فى قناع يحجب عنه الغير ؟ وفى السعى الى الشخصية الحقيقية ، كم يحتمل أن يطول سفره على الطريق حتى يصل الى أن يقرر فرديته ؟ ان هذه كلها أسئلة وجودية تقوم جميعا على أساس من تقرير شخصية الفرد الحقيقية ؛ فهذا شوفال وأصلا ليبينتين ، ويعرف باسم مونانتيبل ، فضلا عن عدد لا يحصى من الأسماء المسرحية التى حملها فى حياته العملية الطويلة الناجحة .

ويرغب شودفال فجأة فى أن يكون نفسه ؛ أن يشعر بألوان من العاطفة لاعلاقة لها بأدواره التى يمثلها ، فلأن يكون انسانا ، لا بد أن يشعر بالندم ، ولكنه حتى يشعر بالندم ذاك ، لا بد أن يرتكب جريمة مروعة ثم يلقى بعدها نفسه فى عزلة عن الغير . وهكذا يدبر شودفال أمر حياته على نحو ما يفعل مخلوق انسانى يحس ويشعر ، فعن طريق المواءمة بين وجوده وخططه فى الحياة ، يخلق هذا الانسان جوهره ولكن فراغ العالم من المعنى بلغ درجة ، حتى أنه وقد نفذ خطته التى تبعث الرعب فى النفوس بنجاح كبير ، وخلد الى منارة مهجورة ينتظر الندم ، اذا هو لا يقع على شىء . واذا به يواجه « لاشيئية » الوجود ، واذا بالقارىء آخر الأمر يقرأ : « لم يحس بشىء ، بأى شىء على الاطلاق ! » وتلك عبارة تسبق الى الوجود قولة موزيل ، قصاص الجنس الوجودى : « انكل شىء من الناحية الوجودية لا يمكن قياسه ، ومن ناحية المعنى ، هو خلط واضطراب » .

ويقدم لنا دى ساديه فى قصة « حوار بين قسيس ورجل يحتضر » صورة عكسية مباشرة لما نراه عند فيرفى وشودفال الذى يرغب فى الندم ولا يجد شيئا . نرى مريض دى ساديه يبذل وهو على فراش الموت نصيحة مؤداها أن الندم العقيم يثير السخرية لا أكثر ، وأن الجريمة فى ذاتها يجب أن يتجنبها المرء ويتحاشاها ، لا عن طريق الخوف ، وانما عن طريق العقل والمنطق .

ويمضى صاحبنا فيقول ان الانسان يستطيع عن طريق العقل والطبيعة أن يرتفع

فوق احساساته باللاشيء · ونراه ، بدلا من أن يرهبه عالم لا وجود لله فيه ، يحاول ما وسعه أن يدخل فى روع القسيس فيؤمن بقوله ، ان عالما هذا شانه ، عالم بغير الله ، يعلو على عالم يحكم فيه الله الانسان · ففى هذا العالم الأخير يحكم الانسان عن طريق الخوف ، بينما فى عالم لا وجود لله فيه ، يغدو الانسان له الكلمة العليا· ان الانسان يستطيع أن يحقق شخصيته عن طريق اللذة ، ويستطيع الى هذا أن يحكم نفسه بالعقل والمنطق لا بالخرافة والدجل والنفاق · وهو هنا يلتقى مع سارتر ثانية ، حيث يقول هذا : « ان الانسان يصنع نفسه » · وقد يختلف الشكل ويتباين ، ولكن الانسان حر يختار جوهره بغير ما تدخل من أعلى · ويمضى دى ساديه فى مذهبه القائم على امكان التغلب على النفور من المجتمع الذى نعيش فيه عن طريق الاغراق فى اللذة الحسية ، مما ترسم صورته شخصياته العديدة فى قصصه الكثيرة ·

وقريب من قريب ، يتجه المذهب الوجودى عند صمويل بيكيت وفرانز كافكا وسيزار بافيس اتجاها مغايرا · فالطراز الوجودى فى قصص صمويل بيكيت شخصية فى خلاف وصراع مضطرب مع الأشياء من حولها ، ذلك لأنها هى وحدها دون غيرها لها نصيب من الحقيقة ، ويذهب بيكيت أبعد من هذا فيقول ، ان حتى تلك الحقيقة موضع شك وريبة فى آخر الأمر ، ولا أدل على هذا من قصته « الطريد » ؛ ففيها يتمثل السعى الذى لا أمل له من أجل أن يعرف صاحبها ألا سبيل الى ردها ·

وفى قصة كافكا « راكب الجردل » ، يبرز عنصر الوجودية فيما تقدمه من عالم أصابه الجمود ، تلعب فيه الارادة الانسانية دورا صغيرا أو هى لا تكاد تلعب أى دور على الاطلاق · والانسان عند كافكا ، وهذه ظاهرة واضحة لا يشوبها شك ، فى قصصه قصيرة وطويلة ، هودائما الضحية البريئة ليس هناك من يخفف غلواءها حياله · واذا كان هذا حاله الذى آل اليه ، لا لشيء سوى أنه انسان ، فانه لا يملك الا أن يندب حظه وينتحب ، فنراه يقول : « أنا هنا ، وأكثر من هذا لا علم لى به ، وأبعد من هذا لا يمكننى الذهاب ··· »

وفى قصة برخت « سقراط الجريح » ينتقل بنا المؤلف الى جانب آخر لنشاط الوجودية فى ثوب القصة القصيرة ·· ذلك جانب التعليق السياسى الذى فى السخف فى دنياه هو القاعدة ، والنظام هو الاستثناء والشذوذ · ويرمز بريخت الى خلو البطولة من المعنى فى معركة تقرر قوى أخرى بجانب الأفعال الفردية نتيجتها · ولعله هنا يومىء الى بلده ألمانيا وما كان من أمرها فى الحرب العالمية الأخيرة · ونقطة أخرى تبرز فى هذا المجال ، الا أنها أقل حظا من الوضوح · ان الارادة الفردية لا فائدة فيها أساسا فى عالم لا يستجيب للعمل البطولى · وصفوة القول هنا أن الفرد يغترب بفعل غيره عن رغباته كلية تقريبا · وسقراط الجبان ، هو سقراط البطل الى حين ، ثم لا يلبث أن يسقط بفعل شوكة آلمته فى قدمه ، الا أنها أثارت السخرية من جانب غيره · وعلى طول القصة ، لا ينزع سقراط مرة فيخدع نفسه لأن مناط الفضيلة عنده أو ان شئت عند بريخت وأعنى الفضيلة الوجودية العظمى حقيقة الذات فلأن شخصا حقيقيا معناه أن تكون شخصا يواجه الحال الانسانى ، يتقبل فى تصميم واصرار حقيقة محدوديته وموته ، ويستجيب للحياة استجابة ابداعية ، ويتحمل فى رجولة مسئولية قراراته كلها · وهذا فيما يضمن برخت حديثه ، سر عظمة سقراط

والحديث يطول ، وحسبنا هذا القدر الذى يفى بالغاية فيما نقدر ؛ فانما نسعى الى عرض نماذج وجودية من القصة الوجودية التى بلغت ذروتها فى أيامنا هذه ·